مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2023 ص 263 - 281

تاريخ الإرسال: 2022/01/30 تاريخ القبول: 2022/12/03
تاريخ النشر: 2023/06/03

المسؤوليّة الكونيّة
Cosmic Responsibility

ط د. لخضر شيخاوي [1]، د. سواريت بن عمر [2]
جامعة وهران2 (الجزائر)، [1]cheikhaouilakhdar@gmail.com
جامعة وهران2 (الجزائر)، [2]Sarauteomar@yahoo.fr

الملخّص:

رغم أنّ مفهوم المسؤوليّة مفهوم واسع المدلولات ومتعدد الميادين، سياسية، اجتماعيّة، وأخلاقيّة، إلاّ أنّ شيوعه بشكل كبير كان في الميدان الأخلاقي، ولذا تشكل مقولة المسؤوليّة مشروعا أخلاقيا بارزا في الفلسفة الغربيّة المعاصرة بالخصوص، فهي تحاول توجيه الفعل البشري الخاضع للتطوّر التكنولوجي الرهيب في شتّى المجالات، مما يجعلنا على مسؤوليّة بالغة الأهميّة تضم في حساباتها الأجيال القادمة، وكيفيّة حمايتها من الأخطار المهدّدة لإنسان الحاضر والمستقبل ولكون المسؤوليّة التي نادى بها هانز يوناس كونيّة فهي أكثر قوّة عن سابقاتها.

الكلمات المفتاحية: المسؤولية، الكونية، هانز يوناس، الأخلاق، البيئة.

Abstract:

Although the concept of responsibility is a broad concept with multi-field meanings, political, social, and ethical, it was widely spread in the ethical field. Therefore, the category of responsibility constitutes a prominent moral project in contemporary Western philosophy in particular, as it attempts to direct human action subject to terrible technological development in various fields. The domains, which makes us

bear a very important responsibility that includes in their calculations future generations, and how to protect them from the dangers threatening the human being of the present and the future, and because the responsibility that Hans Joans called for is universal, it is more powerful than its predecessors.
Keywords: responsibility, universality, Hans Jonas, ethics, environment.

المؤلف المرسل: لخضر شيخاوي، الإيميل: CHEIKHAOUILAKHDAR@GMAIL.COM

1- مقدمة:

صحيح أنّ مفهوم المسؤوليّة مفهوم واسع المدلولات ومتعدد الميادين، سياسية، اجتماعيّة، وأخلاقيّة، إلاّ أنّ شيوعه بشكل كبير كان في الميدان الأخلاقي، ولذا تشكل مقولة المسؤوليّة مشروعا أخلاقيا بارزا في الفلسفة الغربيّة المعاصرة بالخصوص، فهي تحاول توجيه الفعل البشري الخاضع للتطوّر التكنولوجي الرهيب في شتّى المجالات، مما يجعلنا على مسؤوليّة بالغة الأهميّة تضم في حساباتها الأجيال القادمة، وكيفيّة حمايتها من الأخطار المهدّدة لإنسان الحاضر والمستقبل، ولكون هذه المسؤوليّة كونيّة فهي أكثر قوّة عن سابقاتها، ونتساءل هنا ما مفهوم المسؤوليّة عموما ؟ وما مفهوم المسؤوليّة عند الفيلسوف المعاصر هانز يوناس[*] ؟

2- مفهوم المسؤوليّة:

2-1-لغة: تتعدّد معاني المسؤوليّة في معاجم اللّغة العربيّة، ولقد أصّلها ابن فارس من " سأل: السين والهمزة واللاّم كلمة واحدة؛ يقال: سأل يسأل سؤالا ورجل سؤلةٌ: كثير السؤال"[1] والمسؤوليّة هنا تلتصق بالفعل سأل أي طلب المعرفة لشيء مجهول. أمّا في لسان العرب فقد جاء مفهوم المسؤوليّة أيضا بمعنى الطلب "سأل يسأل سؤالا وسآلة ومسألة، وتساءلوا وسأل بعضهم بعضا، وفي التنزيل العزيز " واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام" (سورة النساء الآية 01.) ومعناه تطلبون

حقوقكم به ، وقوله تعالى : "كان على ربّك وعدا مسؤولا" (سورة الفرقان الآية 16) أراد قول الملائكة ربنا أدخلهم جنات عدن التي وعدتهم، وقال تغلب: معناه وعدا مسؤولا إنجازه، يقولون ربنا قد وعدتنا فأنجز لنا وعدك وقوله تعالى: "وسوف تسألون" معناه تسألون عن شكر ما خلقه الله لكم من الشرف والذكر"[2].

وجاءت أيضا بمعنى التوبيخ والمؤاخذة " قوله عزّ وجل: "وقفوهم إنّهم مسؤلون" قال الزجاجي: سؤالهم سؤال توبيخ وتقرير لإيجاب الحجّة عليهم لأنّ الله جلّ ثناؤه علم بأعمالهم"[3] وعموما تجتمع المعاجم العربيّة في إيراد معنى عام المسؤولية من خلال ربطه بمعنى الطّلب والاستفسار وإن تأتي على صيغ مختلفة.

2-2- اصطلاحا:

تعني المسؤوليّة في الاصطلاح "كل ما هو واجب على الإنسان فعله" [4] ويعلق جميل صليبا في معنى المسؤوليّة بقوله" أنا بريء من مسؤوليّة هذا العمل والمسؤول من الرّجل هو المنوط به عمل تقع عليه تبعته، ويشترط في المسؤوليّة الحقيقيّة هناك أمر بالفعل أو بالترك وإن كانت مخالفة المرء لما يأمر به القانون صادر عن إرادته"[5] أي أن المسؤوليّة هي ما يترتب عن فعل سواء كنت مأمورا به أو منهيا عنه أ هي ملتصقة بالفاعل.

ويحتلّ مفهوم المسؤوليّة في الأوساط الغربية خصوصا عند أندري لالاند مكانة قريبة من المعنى الأول لارتباطها أيضا بالفاعل "فهي مكانة أو سمة ذلك يمكن أن يدعى (للرد) على واقعة، إنّ المسؤوليّة لا تتعلّق بالفعل الأخلاقي ولا حتى بالنيّة تتعلق فقط بطبيعة الفاعل ألا يحكم مسبقا على مسألة الاستعلام في هذه كما ستكون عليه المسؤوليّة"[6] ومنه فالمسؤوليّة مرتبطة بالشخص صاحب الفعل وعمّا فعل لأنه صاحب إرادة الفعل، ولهذا ينسب له الفعل بغض النظر عن نيّته ولا بفعله أي المسؤوليّة مرتبطة بالإلزام.

كما وترتبط المسؤوليّة بالأخلاق فهي عند البعض " مبدأ أخلاقي كحافز ذاتي لدى الفرد، فالتربيّة على قيّم المسؤوليّة وعلى فهم المسؤوليّة وغلى القيام بالمسؤوليّة، هو شأنٌ ذاتي صرف، فضلا عن شأن المجتمع والّدولة"[7] ومن هنا تظهر المسؤوليّة الأخلاقية مرتبطة بالفرد أكثر من ارتباطها بالمجتمع أو الدّولة، فالفرد هو الأساس ومسؤوليّة المجتمع من مسؤوليّة الأفراد، فالإنسان سيّد مسؤوليّته لأنّه سيّد ضميره.

توحي المسؤوليّة دائما بوجود فعل ضار يوجب مؤاخذة فاعله فلا مسؤوليّة بدون فعل، ولأنّ المسؤوليّة ترتبط بالأخلاق أكثر من أي جانب آخر فهي شعور قبل كل شيء؛ شعور الإنسان بالتزامه أخلاقيا بنتائج أعماله قولا وفعلا، وجدير بالذكر أنّ مفهوم المسؤوليّة يتداخل فيه ما هو أخلاقي بما هو اجتماعي بما هو ديني، فالمسؤوليّة الدينيّة هي التزام الفرد بأوامر الله ونواهيه، وتقبل كل ما يترتّب عليها من جزاء أو عقاب، ومصدر هذه المسؤوليّة كتاب الله وسنّة نبيّه أي بالدين، أمّا المسؤوليّة الاجتماعيّة فتعني التزام الفرد بكل ما يقرّه المجتمع وتقبّل ما ينتج عنها من جزاء أو عقاب "فنحن مسؤولون عن أفعالنا أمام المحكمة وأمام سلطة اجتماعيّة، إنّها مسؤولية تجعلنا نستحق العقاب عندما تخالف أفعالنا القواعد"[8] .

3- المسؤوليّة اليوناسيّة:

3-1-من المسؤوليّة الكلاسيكية إلى المسؤوليّة المستقبليّة:

ينطلق يوناس في تحديد مفهوم المسؤوليّة لديه من خلال نقده لمفهومها الكلاسيكي الذاتي المرتبط بالفرد ونقده أيضا لمفهوم المسؤوليّة الجماعية الملتصقة بالعادات والتقاليد ، وهذا ما كان في كتابه "مبدأ المسؤوليّة"، فالمسؤوليّة الأولى حسبه ذاتيّة ومركزة على الذات البشريّة، والمسؤوليّة الثانيّة انحصرت على العادات والتقاليد المرتبطة بالجماعة والتي يتحمل فيها الفرد ما لم يكن حرا في اختياره فهي مسؤولية غير موضوعيّة.

يمكن تلخيص أخلاق المسؤوليّة عند يوناس بأنّها قراءة نقدية فاحصة لتراث الأخلاق الكلاسيكيّة خاصة تلك الداعية إلى المركزيّة البشريّة المنغلقة على الإنسان، مثل تلك التي نادى بها ديكارت من خلال الكوجيتو وهذا واضح في قوله: "توجد في ذاتي لا نهائية من الأفكار حول كل الأشياء مع أنّها ليست لها وجود خارج أفكاري"[9] هذا التعالي للذات أدى إلى قتل الطبيعة في يعن يوناس , وأدى إلى الانغلاق على كل شي فلا شيء يعلون فوق صوت الذات، ولهذا دعا يوناس إلى تجاوز الدائرة التي رسمتها الذات حول نفسها والانفتاح على العالم يقول يوناس: "الانفتاح على العالم هو أمر رئيسي في الحياة"[10] أي الدعوة إلى إعطاء قيمة أيضا لغير الإنسان من الحيوان والطبيعة وتجاوز فكرة أنّ الحيوان آلة خادمة للإنسان وأنّ أرض مكان عيش الإنسان يفعل فيها ما يشاء، فمبدأ الحياة تشترك فيكل كل الكائنات الحيذة وكلها لها الحق في العيش والبقاء.

ولم يخرج الفكر البيكوني عن المركزيّة الذاتية حيث أكّد علم الإنسان هو فهم الطبيعة أكثر فأكثر من أجل استغلالها، وما تطوّره إلاّ لإيجاد وسائل أكثر استغلاليّة للطبيعة يقول بيكون نفسه: "الإنسان هو الموكّل بالطبيعة والمفسّر لها وهو بهذه الصّفة لا يملك أن يفعل أو يفهم، إلاّ بالقدر الذي تتيح له ملاحظته التي قام بها لنظام الطبيعة، سواء في القواقع أو في الفكر" [11] وبهذا تكون التجربة أساس للمعرفة ووسيلة أكثر نجاعة لاستغلال الطبيعة التي تحمل منافع الإنسان المختلفة حتى وإن كانت الوسيلة المستعملة تشكّل خطرا على الطبيعة فالمهم هو أنّها تحقق سعادة الإنسان وغايته.

يرفض يوناس هذه النظرة البيكونيّة فهذا الفكر "لا يأخذ بعين الاعتبار عواقب وإجراءات على حياة البشر في مختلف الجوانب الذي هو عكس التفكير المنطقي للأخلاقيات الجديدة المنافيّة للمبادئ الأخلاقيّة المعروفة التي لا تهتم بالآخر.. فهي

ترتكز على وسائل تقنيّة لأنّها لم تكن في حاجة للقيام بذلك في تلك الفترة، ولم يكن لها قوّة تدميريّة كما هو الآن في الحقبة المعاصرة، لذا لسنا في حاجة إلى أخلاق قديمة لأنّنا اليوم نعرف طابعا جديدا من العنف بسبب التدهوّر البيئي الذي له تأثير ملموس" [12] .

لم تتجه أخلاق المسؤوليّة فقط إلى نقد الأخلاق الكلاسيكيّة بل عين يوناس كانت ناقدة للأخلاق الكلاسيكيّة من جهة وكانت ناقدا بعينه الأخرى لحالة العلم المتطورة من جهة أخرى، فقد شكّل التطوّر الرهيب الذي شهده العلم المعاصر خطرا كبيرا على الطبيعة وعلى الإنسان نفسه، الأمر الذي استغلال الطبيعة وإتلافها أكثر سهولة، وعليه نحن بحاجة غلى أخلاق جديدة تتجاوز الماضي وتتجدد وفق متطلبات الواقع، تكون بمثابة المرجع الرئيس في كل المجالات وخاصة العلميّة.

تتسع دائرة النقد عند يوناس لتشمل أيضا كانط، حيث يرى يوناس أنّ الأخلاق الكانطيّة تأخذ النوعيّة والذاتيّة منهجا لها فهي قائمة على التعالي الذاتي من خلال فكرة "الإرادة الخيّرة" التي هي حسب كانط ميزان لقياس الأخلاق، فالخير خير إذا توافق مع هذه الإرادة الخيّرة، والشّر ما تعارض معها يقول كانطّ "إنّ احترام القانون الأخلاقي هو إذاً الدافع الأخلاقي الوحيد والقاطع في الوقت نفسه"[13] ولهذا وصفت الأخلاق الكانطيّة بأنّها أخلاق إنسانيّة، لأنّها تجعل الإنسان غاية، وهذا ما جعلها عرضة للنقد من طرف يوناس الذي ضمّ كل الفلسفات الكلاسيكيّة لاجتماعها على مبدأ واحد وهو العقل الإنساني يقول يوناس منتقداك "إنّ كلّ الأوامر وكل المبادئ التي تقوم عليها الأخلاق التقليديّة بغض النظر عن محتواها، فهي تجعل مصير الطبيعة مرتبط بشكل دائم بالعقل الإنساني"[14].

من هنا يتجلى مشروع يوناس الذي يبدأ بالإلحاح الشديد على ضرورة توسيع دائرة المسؤوليّة لتشمل كل الكائنات الحية والطبيعة أيضا، وانتقاده أيضا للواقع

العلمي الذي أفرز وسائلا متطورة أدت إلى استغلال وحشي همجي للطبيعة، ولم يكتف بالنقد فقط بل قدّم البديل الذي تمثّل في "المسؤولية الكونيّة" التي رآها القاعدة الأساسيّة التي تصلح لتفسير الأوضاع الراهن، والمستقبل، فهذه الأخلاق تحمل في طياتها أفاقا مستقبليّة أي تتسم هذه الأخلاق اليوناسيّة الجديدة بالتجدد والصيرورة.

3-2- أشكال المسؤوليّة عند يوناس:

تتعدد أشكال المسؤوليّة بحسب يوناس بدأ من المسؤوليّة الأبويّة التي يعتبرها قاعدة مركزيّة للأشكال الأخرى، مرورا بمسؤوليّة السّياسي وصولا إلى مسؤولية العالم والطبيب.

3-2-1- المسؤوليّة الأبويّة:

إنّ هذا النّوع من المسؤوليّة حسب يوناس لا ترجع إلى أي قيد، فهي مسؤوليّة حرّة نابعة من الطبيعة الإنسانيّة فهي "المسؤوليّة الوالديّة التي لا ترجع أي اتفاق سابق، ولكنّها ولدت من رحم الطبيعة المتأصلة فينا"[15] النابعة من طبيعة الإنسان الحر الواعي، ولكنّها ترجع إلى بداية الإنسان وبالضبط إلى الطفل "فالمسؤوليّة الوالديّة تتعلق بالطفل من حيث وجوده الشامل، وليس عبر حاجياته المباشرة وحسبن وهي مسؤوليّة لا يمكن أن تقف بإجازة؛ إنّها موصولة لأنّ حياة الموضوع التي تستمر دون توقف

تنجب من جديد مطالبها الآتيّة للآخر وأخيرا فإن هذه المسؤوليّة تتناول مستقبل وجود الطفل" [16]. وعليه فالمسؤوليّة الوالديّة تتميّز بنظرة مستقبليّة للطفل وتنطلق من حقوقه على والديه، وعلاقة الطفل بوالديه هي جوهر هذا النوع من المسؤوليّة من حيث هو كابن لهما، ومن حيث هو إنسان المستقبل فغاياته وأهدافه ومعيشته هي غاية هذه المسؤوليّة.

يعطي يوناس "المسؤوليّة الأبوّية" أهميّة بالغة لكونها مسؤوليّة قديمة وطبيعيّة من جهة ومتجدّدة مستقبليّة ودائمة من جهة أخرى، فمسؤوليّة الأب اتجاه الابن لا شروط فيها حتى وإن أنتجت مسؤوليّة معاكسة؛ أي مسؤوليّة الابن على الأب باعتباره الذي رباه وملهمه في الحياة ، إلاّ أنّ مسؤوليّة الآباء غير مشروطة بشيء يقول يوناس: "حتى ولو كنا ننتظر منهم ردا مماثلا في شيخوختنا بمشاركتهم إيانا الحب والحزن إلاّ أنّ ذلك لا يمكن اعتباره بأي شكل من الأشكال شرطا من شروط المسؤوليّة المعروفة نحوهم والتي هي في الحقيقة على العكس لأنّها غير مشروطة"[17]

إنّ المسؤوليّة الأبويّة طاهرة ونزيهة من أي مصلحة أو خدمة قد ترتبط بها أو تحققها في طريقها دون قصد، رغم أنّها تجلب مسؤوليّة معاكسة التي يحس بها الأبناء اتجاه أبائهم لأنّها قائمة على العاطفة وعلى العقل في الآن نفسه، وتعطي قيمة كبيرة للوجود الإنساني ، إنّها مسؤوليّة وجوديّة للحاضر وللمستقبل تحمل تضحيات الناس في الحاضر من أجل إنسان المستقبل الذي لم يأتي بعد وفق ارتباطات أخلاقيّة لا غي، وهي على حد تعبير يوناس :" النموذج الأصلي والأبدي لكلّ مسؤوليّة" [18] نظرا لما تحمله من مميّزات كثيرة أهمّها الشموليّة أو الكونيّة فهي ترى الطفل من كل جوانب الحياة بحتميّة وجوديّة.

3-2-2- مسؤوليّة السيّاسي:

دعا يوناس إلى نموج آخر من المسؤوليّة وهو مسؤولية رجل السياسة الذي حسبه لا يختلف عن نموذج المسؤوليّة الأبويّة فهو يخطو بخطواته، رغم أنّ هذه المسؤوليّة مصطنعة وليست طبيعيّة، فهي نابعة من صميم القانون الوضعين وتجمع بين مسؤوليّة المجتمع والحاكم، وهي تختلف أيضا عن المسؤوليّة الأبويّة من جانب أنّها مسؤوليّة مشروطة بتطبيق القانون.

إنّ مسؤولية رجل السياسة تابعة كما أشرنا إلى المسؤوليّة الأبويّة ولكنها تمثل أعلى درجات الرعاية يقول يوناس" إنّ المسؤوليّة الجديدة (يعني مسؤوليّة رجل السياسة) بواجبها تتجه أكثر للسياسة العامة أكثر مما تتجه للسلوك الفردي الخاص"[19] بمعنى أنّ يوناس قصد بالمسؤوليّة السياسية النمط العام الذي يأتي بعد مسؤولية الوالدين التي هي نمط خاص، أي المسؤوليّة السياسيّة تنفتح على العام، فالسياسي هو قدوّة البقيّة لأنه الوصي على رعاياه داخل الدولة، ومن واجبه جعل عينه مفتوحة دائما على إرادة الأغلبيّة، فمسؤوليّة السياسي هي " نوع من أنواع الوصايا التي هي ليست جزءا من جوهر السياسة، ولكن حتى رمز الجمهوريات الأكثر استنارة.. التي يُحكم فيها فقط بإرادة الأغلبيّة" [20].

ومنه فإرادة الأغلبيّة هي التي تجعل من مسؤوليّة السياسي مسؤوليّة مراقبة ومحدودة بتطبيق قوانين الدّولة التي يجب الاحتكام لأوامرها والالتزام بنواهيها، فالسياسي هو ممثّل لها لا يخرج عن طوعها ولا يستطيع أن يتمتع بقبضة من حديد للتحكم في السلطة، ولا بحصانة تحميه من إرادة الأغلبيّة لأن مهمّته الأولى والأخيرة في نفس الوقت أن يكون وصيا مخلصا لأفراد مجتمعه الخاضعين لسلطته.

إنّ مسؤوليّة رجل الدولة تضفي على هذا الأخير في نظر يوناس صفة أخلاقيّة عاطفيّة وهي صفة الأبوّة على كل من يخضعون لمسؤوليته وكأنّهم أولاده، وهذا ما يجعل طريقة اختيار المسؤول جد صعبة، إذ يجب أن تتوفر فيه العديد من الصفات الفاضلة والخصال الحميدة حتى يصل إلى هذا المستوى من الوعي بالمسؤوليّة الذي يخوّل له أن يرى من يقعون تحت مسؤوليّة كأنّهم أولاده، وأهّما أن يكون ذا قلب رحيم يحس بالمسؤوليّة اتجاه نفسه واتجاه الغير بنفس القدر، هذه هي أهداف المسؤوليّة الحقّة دون إحداث أي ضرر بالطبيعة المطبوعة يقول يوناس: " حتى وإن كان الهدف هو اتعاض الأمّة من رجل السياسة، فليس له الحق دائما أن

يستعمل أ وسيلة مدمّرة خاصة وأن الخدمات التكنولوجيّة الحديثة وتطوّراتها تشكّل تهديدا لجميع المخلوقات في المستقبل"[21]

هنا يزيد العبأ على رجل الدّولة فليس له مهمّة واحدة فقط وهي هي حماية الواقعين تحت سلطته بل تتسع دائرة مسؤوليته إلى الطبيعة البشريّة كليا وإلى الطبيعة الماديّة أيضا لأنها هي الأخرى بما تحمله تحت سلطته، فلا يجب عليه المخاطرة وإدخال المجتمع والطبيعة في أمور لا يحمد عقباها أو مشكوك في نتائجها، فالحذر كل الحذر من ما أنتجته التكنولوجيا اليوم، فقراراته لا تبنى على العشوائيّة والاستهزاء ولا على الاستهتار، وإنّما يجب أن تبنى على التعقّل والتدبّر والحكمة متبعة ما هو حير للمجتمع عامة ولا يضر الطبيعة بشيء، ولا تهدف إلى أي غرض شخصي، فالدّولة ومصيرها ليست ملكيّة خاصة، وهذا يعني أنّ مسؤوليّة رجل الدولة تتعدى حدود مجتمعه وحدود أرضه لتكون مسؤوليّة إنسانيّة كونيّة تحتم بالأرض بمن تحويها.

3-2-3- مسؤوليّة العالم:

إذا كان علماء الأحياء يعرفون الإنسان بأنّه كائن حي، وإذا كان علماء الاجتماع يعرّفونه بأنّه كائن اجتماعي بطبعه، فإنّ يوناس يعرف الإنسان بأنّه "كائن مسؤول" فهذا ما تمثله حقيقته، وإذا كان ديكارت يرى أنّ الإنسان موجود لأنّه يفكر فإنّ يوناس يرى أنّ الإنسان موجود لأنّه مسؤول .

يتجلى قلق يوناس في مطلع كتابه مبدأ المسؤوليّة حين يصف " العلم الحديث قوّة لا حدّ لها ..لا حدود لمداه يتطلّب قيودا أخلاقيّة لكي لا تصبح لعنّة على الإنسان" [22] ولهذا نجد أنّ " الأطروحة الجوهريّة لمشروع "أخلاق المسؤوليّة" عند يوناس تجد نقطة انطلاقها في مفهوم الكارثة التي صارت تهدّد مستقبل الإنسانيّة بعد الأزمات التي الإيكولوجيّة التي بات العقل البشري يعيشها منذ قرون من الزمن" [23]

ومن الاعتراف كل الاعتراف أنّ الإنسان هو أوّل وأكبر مهدد للبيئة أكثر من شيء آخر.

إنّ المسؤوليّة التي نادى بها يوناس كونيّة تحمل في طياتها حماية الإنسان والطبيعة معا، وعليه فالمسؤوليّة اليوناسيّة حسب الفيلسوف الفرنسي بول ريكور تمس ثلاثة نقاط أساسيّة هي : "القدرات والإصرار والمسؤوليّة؛ فالتقدّم التقني بصيب تقدما أعمى دون وعي، فإذا غابت روح المسؤوليّة، فالسلطة يجب عليها أن تسيطر على هذه القدرات وإلاّ حلّت الكارثة على الإنسان والطبيعة على حد سواء ولا يمكن للإنسان أن يتجنب ذلك إلا إذا اهتدى واسترشد إلى "مبدأ المسؤوليّة"؛ أمّا إذا استعمل سبيل التعويض معتقدا أنّ ذلك هو الإنصاف بعينه فهذا في نظر يوناس غير ممكن لأنّ الشّعور بالمسؤوليّة هو أساس الأخلاق"[24] هكذا هي مسؤولية يوناس قاعدة أخلاقيّة بامتياز هادفة لحماية الإنسان من الإنسان، والطبيعة من الإنسان حاضرا ومستقبلا.

لا شكّ أنّ الإنسان كائن شغوف بالمعرفة فهو يسعى جاهدا لكسب المعارف والاستفادة منها قدر الإمكان لتحقيق مصالحه من رفاهيّة وسعادة، لكن هذا لا يعني النظر من جانب واحد أي إلى مصالحه فقط بل وجب عليه النظر غلى جانب الطبيعة أيضا، فلها الحق كما له الحق في البقاء والاستمراريّة، كما أنّ للإنسان المستقبلي الذي لم يولد الحق في الخيرات الطبيعية والتمتع بها في إطار عقلاني.

لقد انتهى الوعي الإنساني المعاصر إلى حقيقة مؤكّدة مفادها أنّ التطوّر التكنولوجي بمختلف أشكاله الصناعية والبيولوجية أصبح يشكّل خطرا واضحا مهددا للوجود البشري والمادي، فقد جرّ العلم العلماء إلى واقف لا تحمد عقباها، وهو الذي حاول يوناس كما أشرنا أن ينوه له ويضبط ما يسمى بمسؤوليّة العالم الصّانع الذي

هو سبب هذه الأزمة. ففي البداية يتساءل يوناس في كتابه "الفن الطبي والمسؤوليّة" " هل الباحث يتحمّل مسؤوليّة بحثه؟ وهل بالإمكان أن يكون مذنبا بسبب بحثه، قد بدأت هذه الأسئلة لاحقة من خلال عذاب الضمير وتأنيبه ففي الماضي كان الباحثون لا يهتمون بالوعي، أي ما الغرض من شرعيّة البحث إن لم يكن في صالح البيئة مثل انعكاس المعرفة النووية ومساهمتها في صنع القنبلة النووية، هذا القلق امتد غلى مجالات أخرى لعدم تقيّده بالمسؤوليّة فهناك تشارك في هذه للمسؤوليّة"[25] وبهذا تشكّل المسؤوليّة الجانب الأول في أخلاق العلم، فقبل الشروع في العمل والإبداع يجب أن ينطلق العالم من أسئلة جوهريّة تمثّل أخلاق المسؤوليّة في العلم، كأن يتساءل هل هذا العمل ينفع النّاس؟ وهل يؤدي إلى ضرر إليهم وإلى الطبيعة أو على الإنسان المستقبلي؟ هذه الأسئلة وغيرها تولد من رحم الوعي بالمسؤوليّة وتجعل من العمل الأكاديمي في مواجهة المسؤوليّة، فليس المهم الإبداع والإنتاج، بل المهم أنّ ما هو مصنوع ومبدع ومنتج لا يضر الإنسان ولا البيئة حاضر ومستقبلا.

"بالانتقاء الطبيعي لأخلاقيات البحوث والسيطرة عليها بمنطق تكييف ولا نضع المعايير بل الضمير بحريّة وسعي للتوافق للحد من العمل العلمي، لأنّنا علينا البقاء على قيد الحياة داخل البيئة في مقابل الوجود غير المبالي للقيم، فيجب التعامل بموضوعيّة اتجاه البيئة لأنّ العلماء يتقون أية مسؤوليّة اتجاه الطفل بسبب البيئة في مقابل تطالب باحترام، وذكر يوناس أنّه يجب تعويد أنفسنا على كيفيّة الاهتمام بوجودنا الذي انجرّ عنه خوف يوناس على الإنسان القادم والأكثر منه على البيئة"[26]. إنّ هذا الاستباق نحو الكارثة يوحي بأنّ يوناس يحمل الكثير من روح المسؤوليّة ويحمل الكثير من التحليل والتفسير والدراية بالواقع المعاش، فالمنهج العلمي الذي نتج في القرن السابع عشر مكّن الإنسان من الوصول إلى نتائج مبهرة

أخذت عقول العلماء قبل النّاس، الأمر الذي جعل يوناس يستبشر وقوع الأزمة ليس من باب التخويف بل بقدر هو وعي فيلسوف بما سيكون عليه العالم .

إنّ سؤال المسؤوليّة عند يوناس لا يعني تخلي العالم عن آليات التّطور بل يعني أن يبحث العالم عن شيء لا يضر الإنسان والطبيعة فالمسؤوليّة هذه هي قلب البحوث العلميّة يقول يوناس: " لا نستطيع التخلي عن التكنولوجيا لضروريات الحياة، ولكن يجب حضور المسؤوليّة" [27] فالمسؤوليّة هي الأداة التي تهذب بها الأبحاث العلميّة، فهي أولا والبحث ثانيا.

فقبل الشروع في البحث وجب التقيّد بالمسؤوليّة وحى ولم تتضح معالم هذا البحث إلاّ في الأخير وكانت نتائجه سلبيّة تعرض الإنسان أو البيئة للخطر فمن الواجب إلغاؤه كليا لأنّه له ضرر على العالم المادي أو البشري، ومن الواجب إخفاء هذه النتائج السلبيّة وعدم البوح بها لأنّ ذلك يعني شهادة وفات الضمير ومن ثمّة وفات المسؤوليّة للعام.

إنّ الواجب العلمي يعني في المقام الأوّل "تحمّل الباحث مسؤوليّة عواقب بحثه فهو جزء من البحث، ولم يعد الباحث مفرد في مختبره، بل هو بصفة جماعته التي تسهر على اختيار المشاريع البحثيّة المتنبأ بعواقب انجازها أو منعها لأنّ البحث هو جملة من القرارات البحثيّة التي تهتمّ بالإنسانيّة ومستقبلها"[28] فمسؤوليّة الباحث لا تلقى على عاتقه وحده بل على كل من ساهم في قبول بحثه، وهذا يعني عدم الانقياد الفردي للقيام ببحث، بل يجب دراسة هذا البحث من الجان المتخصّصة، فالفردانيّة في الاكتشافات تمثّل سببا رئيسا في بروز صناعات ضارة كونها مبنيّة على دوافع شخصيّة غالبا ما تكون أنانيّة بعكس العمل الجماعي الذي له منظور شامل وعام يتفقّد كل جوانب البحث.

وهنا نلاحظ يوناس يربط مجال الباحث بمجال البحث المشترك أي نقل البحث من مجال خاص إلى مجال عام، وهذا ما يجعل الباحث ينتقل من المسؤوليّة الشخصّية إلى المسؤوليّة الجماعيّة المبنيّة على قواعد أخلاقيّة متينة تصل حد الإيمان بالمسؤوليّة وهادفة لخدمة المجتمع والعالم يقول يوناس" : فيجب أن يتبنى مهنّة الإيمان بالمسؤوليّة في العلم"[29].هذا الوعي بالمسؤوليّة هو من يؤهّل العالم دائما إلى اكتساب ما هو نافع وليس ضار في أي جانب.

إنّ من البديهي أن يتداخل ما هو علمي بما هو فلسفي لأنّ الفلسفة تحاول إيقاظ الذات الشاعرة للعالم ليس بتوظيف السلطة المدنيّة الرّادعة لأنّ هذا من عمل السياسي أو الحاكم، ولكن باستنطاق الضمير، لأنّ الفيلسوف يكمّل عمل العالم لما تجاهله خصوصا في الجانب الميتافيزيقي، ليس لإعاقة المعرفة بل لينتبه ما فاته ويصححه بحكم طبيعة مجاله، فالعالم يدرس ما هو كائن والفيلسوف ينطلق من ما هو كائن إلى ما يجب أن يكون ، فالفلسفة دائما تذكّر العالم بأنّه إنسان قبل كل شيء أي قبل أن يكون عالما، وتجعله ينظر إلى الآخر وإلى الطبيعة مثلما ينظر لنفسه ، وهو واعي بكل ما يترتّب عن عمله من مسؤوليّة .

3-2-4- مسؤوليّة الطبيب:

أضحت الأخلاق اليوم ضرورة بارزة في البحوث الأكاديميّة، فهي تضفي عليها طابع الجديّة والمسؤوليّة، وبما أنّها مقولة تلتصق بأي مجال فإنّها تقترب أكثر من الجانب الطبّي من خلال ما يسمى بالبيوتيقا، فالطب في نظر يوناس "عبارة عن تأسيس موقف فوري واقعي ينظم حياة الإنسان"[30] ولهذا نجد الأخلاق تأخذ معنى خاص في مجال الطّب ولها مجالهم المسمّى بـ"البيوتيقا" التي تعني أخلاقيات الطب، ويضيف يوناس عليها طابع المستقبلية إذ يؤسس إلى أخلاق مستقبلية التي "تعني الرثاء المعاصر مع حماية المستقبل وحماية أحفادنا من عواقب أفعالنا في الوقت

الحاضر، هذه المسؤوليّة أضحت ضرورة نسيّر بها أعمالنا اليوم خاصة في ميدان التكنولوجيا التي تهدد الحاضر والمستقبل على حد سواء" [31] فعل الطبيب الالتزام كل الالتزام بمسؤوليته نظرا لكون مهنة الطب ملتصقة بشكل كبير بحياة الإنسان والكائن الحي بشكل عام.

لقد عرف الطّب المعاصر تطوّرا رهيبا مثله مثل بقيّة المجالات هذا التطور يحمل جانبين؛ إيجابي ساعد البشر على البقاء أكثر على قيد الحياة من خلال نجاح العمليات التجريبية المختلفة لم نعهدها من قبل، سلبي له أثر عنيف ساهم في ظهور تلاعبات كبيرة من الإنسان وبالإنسان والطبيعة.

لقد استدعت الضرورة الواقعية وجود أخلاق تضبط هذه السلوكيات الغير مقبولة في مجال الطّب الحيوي تمثّلت عند يوناس بـ"أخلاق المسؤوليّة" التي من شأنها ضبط السلوك الإنساني ضبطا محكما، ولهذا فقذ أولى يوناس قيمة كبيرة لمهنة الطب عموما وللطبيب خصوصا، ولكن أي طبيب؟ ذلك الذي يفهم حقيقة المريض ويفهم حقيقة عمله كطبيب وهنا نفهم لماذا وصف يوناس مهنة الطب بـ"الفن الطبي" يقول يوناس: "علينا أولا تحديد هدف الفن الطبي لجعل حياة النّاس ممكنة، فالجسم يحتاج إلى مساعدة بموضوعيّة تعتمد على التقنيّة مثل الجراحة.. ولكن لا ينبغي أن تكون قيمة الشخص هي جهد الطبيب"[32] إذ أنّ للمريض الحق في مناقشة كيفيّة علاجه وسأل هل هو راض عليها أم لا؟ فرضى المريض بعلاج الطبيب له هي المسؤوليّة الأولى للطبيب على المريض خاصة في مألة الاستعانة بالتقنيّة، إلا في الحالات القصوى التي تؤدي بالطبيب إلى فعل أي شيء من أجل انقاذ حياة مريضه. دون الإغفال أيضا عن أنّ علاقة الطبيب بالمريض التي هي علاقة تعاقديّة تنبع من صميم الضمير الإنساني.

يعتقد يوناس أنّ تطوّر "التكنولوجيا الجديد هو إهانة لكرامتنا لأنّها تجرّدنا من إنسانيتنا فواجب الطبيب أن يكون رجل ذا مسؤوليّة"[33] وتحمل المسؤوليّة هذه يبدأ أولا بفهم عمله وتحديد مسؤوليّته اتجاه المريض، ويجب عليه الحذر لأنّ التقدم العلمي في مجال الطّب يمسّ عدّة جوانب منها؛ التقدّم في مجال الإنجاب بمساعدة التقنيّة، ومعالجة الجينات وتعديلها قبل الولادة، وتحديد النسل وأمور أخرى أكثر تعقيدا، وكلها لها أثار سلبيّة بطريقة أو بأخرى وتشترك أغلبيّتها في كونها قرارات فرديّة ولضبطها يقول يوناس: " يجب حضور مسؤوليات أكثر عموميّة"[34] واعيّة أكثر بنتائج هذه الممارسات.

كما لا يقلّ ميدان الجراحة التجميليّة شئنا عن الميادين السابقة لأنّه قرار شخصي هدفه جلب السعادة من خلال تعديل أمور جسميّة أو تغييرها، لكن هنا تكون مسؤوليّة الشّخص الراغب في عمليّة التجميل أكبر من مسؤوليّة الطبيب، وعليه أن يتحمّل مسؤوليّته كاملة بعض ظهور نتائج العمليّة سلبا أم إيجابا، عكس "المسؤوليّة التي تقع على عاتق الطبيب مثل الإجهاض الذي يكون تدبيرا طبيّا عندما تكون حياة الأمّ في خطر، وهنا تكمن مسؤوليّة الطبيب التي أصبحت أكثر تعقيدا بسبب ظهور الحضارة التكنولوجيّة" [35].

كما يتحمل الطبيب مسؤوليّته بشكل كامل عندما تمارس المرأة الحامل الإجهاض دون خطر يذكر، هنا وجب على الطبيب تحديد مسؤوليّته وموقفه اتجاه الجنين، ولهذا "فالدّولة الوحيدة المسؤولة في النهاية عن القرارات التي يقدر فيها أو لا يقدر فيها القيام بحل ما، لأنّ الطبيب ليس هو المعني الوحيد، فهناك جهات أخرى فمثلا لمن الحيوانات المنوية للأمهات الحاضنات ، لتكون الدّولة متورطتا بشكل ما في الموضوع من خلال قضيّة الهويّة القانونيّة"[36] وسكوت الدّولة عن هذه الممارسات بحجّة الحريّة يوقعها في مشاكل كبيرة خاصّة ما تعلّق بتحديد الهويات.

4-خاتمة:

في الأخير نصل إلى أنّ يوناس قام بزعزعة نظام القيّم الديموقراطيّة من خلال اقتراحه حلولا سلطويّة تحدّ من الحريّة الفرديّة المفرطة، لا لشيء إلاّ لأنها تعدّ خطرا مهددا لاستمراريّة البشريّة، امثلت هذه الحلول في الفلسفة الإيكولوجية النابعة ليست القامعة لإرادة الإنسان، بل النابعة من صميم المسؤولية والمعالجة للواقع والمتنبئة للخطر قبل حدوثه، فقد جاءت فلسفة المسؤوليّة عند يوناس لكي تقمع سلطة الإنسان على الإنسان وعلى الطبيعة وعلى الكائنات الحيّة، فالإنسان له الحق في الانتفاع بالطبيعة ولكن ليس له الحق في تخريبها والحاق الضرر بها، ومنع الأجيال القادمة من الانتفاع بالطبيعة، ولهذا كان يوناس لا يعيب الاستخدام عموما ولكن يعيب الاستخدام الضار للطبيعة وللإنسان وللكائنات الحيّة، ومن حلال هذا يمكن وصف المسؤوليّة اليوناسيّة بأنّها مسؤوليّة كونيّة شاملة متنوعة، تبدأ من المسؤوليّة الوالديّة كأول نموذج للمسؤوليّة الفطريّة وتمر بمسؤوليّة رجل الدولة وصولا إلى مسؤوليّة العالم والطبيب.

5-المراجع:

* هانز يوناس(Hans Jonas): فيلسوف ألماني معاصر، ولد في ألمانيا في 10 ماي 1903 وتوفي في نيورك 05 فيفري 1993، تتلمذ مع حنّة أرندت على أيادي هوسرل وهايدغر ويوتلمان، وصار منذئذ ينتمي إلى التقليد الفينومنولوجي للفلسفة المعاصرة، غادر ألمانيا باكرا خوفا من النّازيّة، نشر كتابه "الديانة الغنوصيّة" "رسالة الإله المغترب"، ثمّ نشر سنة 1963 كتاب "ظاهرة الحياة تجاه بيولوجيا فلسفيّة" وفي سنة 1979 نشر كتابه الأهم "مبدأ المسؤوليّة" بحثا عن أخلاق ملائمة لعصر التقنيّة، أنظر: محمد بن سباع، الفلسفة الايكولوجيّة نحو أخلاق جديدة لمستقبل الطبيعة الإنسانية، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 15، العدد 26جوان 2018، ص92.

[1] ابن فارس أبو الحسين أحمد زكرياء ، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1 ، 1991، ص1243.

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل، بيروت، لبنان، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، د ط، 1988، ص75-76.

[3] ابن منظور، لسان العرب، ص 76.

[4] المنجد في اللّغة والأعلام، المكتبة الشرقيّة، بيروت، ط43، 2000، ص159.

[5] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978، ص36.

[6] أندري لالاند، الموسوعة الفلسفيّة، ج3، منشورات عويدات، لبنان، ط 2، 2001، ص1216 .

[7] عبيس مطلب، أخلاق المسؤوليّة عن هانز جوناس النظريّة الأخلاقيّة، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015، ص317.

[8] Poul foulquie, dictionnaire de la langue philosophique; press universitaire de France, Paris, 1962, p 638.

[9] Renè Descartes, Méditations Métaphiysiques, presse unversitaires de France, Paris, 1968, p 35.

[10]Hans Jonas, the phenomenon of life, Toward a philosophical, biology, with of or word by lawence Vogel, Evanston, north western univesith press, 2001, p99.

[11] فرنسيس بيكون، الأرغانون الجديد، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013، ص16.

[12] بن شنة لمياء، أخلاقيات البيئة هانز يزناس أنموذجا، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، إشراف عبد الله موسى، جامعة الطاهر مولاي سعيدة، قسم العلوم الإجتماعيّة، 2018/2017، ص75.

[13] إمنانويل كانط، نقد العقل العملي، ترجمة غانم هنا، المنظمّة العربيّة للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص252.

[14]Hans Jonas, le principe Responsabilité, Une éthique pour la civilisation technologique, Traduit de l'allzmand jean greicl, les éditions de grel; paris; 1990, p 261.

[15] ipd, p186.

[16] جاكلين روز، الفكرالأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط 1 ، 2001، ص 84.

[17] Hans Jonas, le principe Responsabilité, p 88.

[18] Hans Jonas, le principe Responsabilité, p 88.

[19] ipd, p141.

[20] ipd, p200.

[21] Hans Jonas, le principe Responsabilité, p83.

[22] Hans Jonas, le principe Responsabilité, p15.

[23] محمّد بن سبّاع، الفلسفة الايكولوجية، ص98.

[24] Paul Ricoeur, Le cocept de la responsabilitè, zssuis d' analyse sèmantique, Esprit n s, November, 1994, p28.

[25] Hans Jonas, L' art médical et la Responsabilité humaine, tard, ericpommier, les édition du cerf paris, 2012, p 33.

[26] بن شنّة لامياء، أخلاقيات البيئة هانز يوناس أنموذجا، ص11.

[27]Hans Jonas, L' art médical et la Responsabilité humaine, p36.

[28] ipd, P36.

[29]Hans Jonas, L' art médical et la Responsabilité humaine, P 37.

[30]Ipd, P47.

[31] Hanz Jonzs, Mortality and morality a search for The good oftr ausch witz, Lawrrence Vogel, north western, unuvercity press Evanston llinois , 1996, p99.

[32] Hans Jonas, L' art médical et la Responsabilité humaine, p 50-51.

[33] Hans Jonas, L' art médical et la Responsabilité humaine, p98.

[34] Hans Jonas, L' art médical et la Responsabilité humaine,52.

[35] بن شنّة لامياء، أخلاقيات البيئة هانز يوناس أنموذجا، ص127.

[36] Hans jonas, é volution et libertè, trad, sabine, cornille et philippe ivernel, rivage pache petite bibliothéque , France , 2011, p171.